الفصل السادس

ما الأدب ؟ .

لم يكن هدفنا إدخال السرور على الجماهير . . بل هزهم بعنف . إن كل شخصية مصيدة ، تصيد القارىء ، والقارىء بين مختلف الشخصيات تتقاذفه وتسلمه من وعى لوعى ، مرة يثيره قلقهم . . ومرة يغمره حاضرهم ، ويحس بنفسه تحت ثقل مستقبلهم ، وتقضه رؤياهم وأحاسيسهم . كما لو كانت تلالاً لا ترتقى .

جان بول سارتر

* * *

الأدب — عند سارتر — وسيلة تعبيرية عن مضمون يحمل شقين جوهريين ، فهو من ناحية تعبير عن جوهر سياسى ، وهو من ناحية أخرى تعبير عن جوهر فلسفى .

وسارتر إذ يختار الأدب كوسيلة يطلق من خلالها ثورته الاجتماعية ، ويعلى عن طريقها من قيمة مايختار ، إنما يحدد رسالة الأديب والكاتب ، فالأديب له وظيفة خاصة فى المجتمع ،

وهو كسائر الناس فى ذلك ، وإن اختلف عنهم فى نوع الوظيفة وحده ، وهو مسئول عما يجرى فى مجتمعه وخلال حياته من أحداث .

هذا هو ما يعتقده سارتر فى الأدب والأديب ، أو هو على الأقل ما التزم به فى كتاباته ومسرحياته ونقده الأدبى . وهو يقول فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ ، وهو يقدم العدد الأول من مجلته « العصور الحديثة Les Tempes modernes » :

— إن هدفنا هو المساهمة فى إحداث تغييرات معينة فى المجتمع الذى نعيش فيه » ...

« ... ونحن نتحالف مع كل من يسعى لتغيير ظروف الإنسان الاجتماعية وفكرته عن نفسه » ...

وهو يفضح تحلل مذهب « الفن للفن » من كل مسئولية ويقول :

« ... إننى أعد فلوبير والإخوة جونكور مسئولين عن المذابح التى تلت قيام « كومين Commune » سنة ١٨٧١ ، لأنهم لم يكتبوا سطراً واحداً يمنع هذه المذابح » ...

ثم يؤكد سارتر بعد ذلك وظيفة الكاتب فى كتابه « ما الأدب » سنة ١٩٤٧ عند ما يقول :

« إن وظيفة الكاتب هى العمل على ألا يظل أى فرد يجهل ما يحدث فى العالم ، ويتنصل بالتبعية من تبعة ما يحدث ، بحجة أنه كان يجهل ما يحدث ، وأنه لا تبعة عليه لذلك . . . »

. . . وتتضح وظيفة الأدب من طبيعته ، فنحن حينما نقرأ رواية من الروايات ، إنما نبعث بطل الرواية إلى الحياة بما نضفيه عليه من زمننا ، ومن طاقتنا على الحب والكره ، وعلى الصبر ، ومن تطلعنا إلى معرفة ما سيحدث بعد ذلك . ونحن نختار هذا بمحض إرادتنا ، إذ لو أننا رفضنا التجاوب مع « راسكولنيكوف » وقصرنا عنه تعاطفنا ، لصارت رواية « الجريمة والعقاب » مجموعة من الأحداث غير ذات معنى

إن ما يفعله الكاتب هو إحياء العالم ، ثم منحه هذا العالم المعاد ، إلى القارىء ، فى شكل كتاب ، حتى يشاركه القارىء نفس التجربة .

. . . والهدف الأخير للفن هو استعادة هذا العالم بكشفه وعرضه على ما هو عليه ، ولكن كما لو كان يستقى وجوده من نبع حرية الإنسان .

وبمعنى آخر فإن هدف الكاتب هو أن يأتى نفس ما أتاه

« روكنتين » فى « الغثيان » بعد استماعه إلى أغنية « بعض هذه الأيام » : أن يلغى الكاتب عقوبة العالم — أن العالم خلق بالصدفة — ويقدمه كما لو كان العالم قد وجد بإرادة الإنسان » .

ولا سبيل إلى تحقيق هذا الهدف ما لم يكن الكاتب والجمهور — كلاهما — حر فى أن يكتب ويقرأ إما يريد . صحيح أن الوجود عبث ، ولكننا ما دمنا نعيش فلنقبض على الوجود بأيدينا ، ولنمسك دفته نحن أنفسنا ، ولنسير مراكبنا بمحض اختيارنا ...

ولكى ننقذ العالم من العرضية والصدفة التى جاء بها ، لابد أن نحياه كما لو كنا نحن الذين أوجدناه بالإرادة وحدها .

ولكى يقدم الكاتب هذا العالم إلى وعى القراء ، لا بد أن أن يكون كل من الكاتب والقارىء حراً فى فكره ، فلا يمكن أن يتفاهم كاتب وقارىء وأيهما عبد أفكار معينة أو منغلق على نفسه ، فالأدب وسيلة اتصال ، ولأنه وسيلة اتصال بين حريتين فهو حر كذلك ، ولا يوجد أدب له معنى فى مجتمع لا توجد فيه حرية .

والأدب قد يقدم الجانب السلبي فى مجتمع : سوءاته وعيوبه

وهو إن فعل ذلك فإنما بهدف أن يخلق بين قرائه الدافع والإرادة لإزالة هذه السوءات وتغيير هذه المظالم .

وهو قد يقدم الجانب الإيجابى فى المجتمع : حسناته وأبطاله وجوانب الخير فيه . وهدفه هو تهيئة الفرصة أمام كل الناس كى يختاروا بحرية تقليد ما يصوره .

ولا ينبغى أن نفهم من ذلك أن الأدب هو الأخلاق ، فالأدب شىء والأخلاق شىء آخر ، ومع ذلك فكل عمل أدبى يصدر عن دافع أخلاقى .

ولما كان الأدب هو تعبير الكاتب عن إرادته الحرة ، ولما كان القـــارىء وهو يقرأ للكاتب يحقق إرادته الحرة ، فى الاختيار والاستمرار فى قراءة هذا الأدب ، فالعمل الأدبى يكون إذن وثيقة بين إرادتين حرتين ، فهو « وثيقة حرية » .

و « وثيقة الحرية » لا يمكن أن تكون ضد الحرية ، ولو كتب كاتب رؤيا تعلى من الاستعمار مثلا وتشجع على الاضطهاد العنصرى ، فما يقدمه هـذا الكاتب ليس أدباً وليس فناً ، لأن جوهر الأدب والفن هو حرية الإنسان ، ولكن هذه الرؤيا تعادى حرية الإنسان وتلغيها ، فهى ضد الحرية ، ومن ثم ضد جوهر الأدب والفن .

فالكاتب إذن لا يمكن إلا أن يكون إنساناً حراً ، يخاطب بشراً أحراراً . ومن أجل ذلك فلا موضوع للكاتب إلا الحرية وفن النثر هو الفن الذى يكون فيـــه للنثر معنى واحد : الديموقراطية . . .

* * *

ولماذا النثر بالذات من فنون الأدب ؟

إن الشعر ليس هدفه الحرية . هناك حقيقة ضروب من الشعر تهدف إلى الحرية ، ولكن الشعراء عموما يقبلون على اللفظة دون مثيلاتها ، وينسقون الألفاظ على نمط معين وبجرس معين ، لأن هدفهم هو اللفظة والنمط المنسق فى ذاتهما ، فالشعر هدفه نفسه ، وليس له هدف خارج ذاته .

لنتناول الأدب فى العصور الوسطى . إن أدب العصور الوسطى لم يخلق أعمالا كبيرة ، لأن أدباء العصور الوسطى كانوا يعتقدون أن مجتمعهم هو أحسن المجتمعات ، ولا يمكن تغييره ، وهو خالد ، ومن ثم فالكاتب فيه لا يمكن أن يمارس عمله — أن يشير إلى الأشياء ويدفع إلى تغييرها — أن يجعل مجتمعه مجتمعاً ديناميكياً ، يتحرك ويتنفس ويعلو ويتقدم . إن الكاتب تقصر رؤياه عن تمثل المستقبل فهو ستاتيكى .

وفى القرن السابع عشر ظن الكاتب أن مشاكل مجتمعه الدينية

والسياسية قد حلت ، ولم يتبق أمام الأدب إلا مناقشة ماهية الإنسانية عموما . وما كانت سخرية موليير وأضرابه إلا سخرية سيكولوجية تترجم عن « الكف » الذى يمارسه المجتمع على الضعفاء والمرضى . فهى سخريه لا رحمة فيها . سخرية طلبة المدارس الذين يضحكون من عجز وقصور موضوع ضحكهم .

وفى القرن الثامن وجدت طبقة جديدة هى الطبقة البورجوازية ، ولم تكن تملك من أمر نفسها شيئا ، ولقد تعرف الكاتب على نفسه فى هذه الطبقة . ولأول مرة صار المعبر عن آمالها ، ولأول مرة يمارس الكاتب هدفه وعلة وجوده ، وينافح من أجل الحرية للطبقة الوسطى .

وهذا الكاتب هو فولتير وروسو وديدرو .

لقد كانت الطبقة الوسطى هى الطبقة المستغلة والمحرومة من كل الحقوق السياسية .

كان القانون هو قانون النبلاء والأرستوقراطية ، وكانت مدن بأسرها قد قامت على التجارة والصناعات الحرفية غير ممثلة فى برلمانات النبلاء ، فى الوقت الذى كانت فيه بعض

القرى الصغيرة القائمة حول قصور النبلاء ممثلة وبأكثر من عضو واحد .

واتجهت الآداب والفلسفة إلى المنطق ، واستعانت بالعقل ، واتخذت لها التحليل وسيلة لهدم عالل النبلاء والارستوقراطية ، وخرافاتهم الدينية التى تساند نظامهم القديم .

وقامت ثورة ١٧٨٩ ، وتبدل كل ذلك ، وسقط الكاتب من جديد فى هوة المنفى . لم تعد البورجوازية فى حاجة إلى البراهين العقلية ، والمنطق والتحليل ، لتدال به على حقوقها لأنها هدمت كل ما للنبلاء من حقوق وقبضت عليها بيد من حديد .

وفات الكاتب أن يبحث عن قرائه ، وأن يجد المضطهدين وينا صرهم ، ويكتب عنهم ولهم .

ووجدت الطبقة الجديدة المستغلة بانتشار الصناعة ، وقامت البروليتاريا وطبقة العمال ، وبدلا من أن يكون الفن لهم صار الفن للفن . وارضى هذا الاتجاه الطبقة البورجوازية ، لأن مذهب الفن للفن أبقى الكاتب بلا ضرر ، وجرده من قوته . صار الكاتب ضعيفا لاخوف منه . وفضل البورجوازى أن يقال عنه إنه قاصر الحس والذوق الفنى ، على أن ينضم الكاتب والفنان إلى البروليتاريا ويتحالف معها ضده .

وظل الأدب يخدم البورجوازية من خلال « الواقعية » . و « الطبيعية » لأن المذهبين الواقعى والطبيعى كانا ينتهجان منهجاً فى الكتابة ، يقول بأن هذا الذى تراه قد حدث وانتهى الأمر فيه ، وأنه لا سبيل من أجل ذلك إلى تغيير ماحدث لأنه قد حدث ، وأن البناء الاجتماعى الذى يؤدى إلى حدوث ماحدث شىء حتمى لا يمكن نقضه أو تعديله ، لأنه بناء يؤدى إلى الموت ، وليس بعد الموت من حياة ، فالواقعية تحاصر الموضوع الذى تتناوله ، وتوقعه فى فخها . وتفقده الحركة ، وتقطع أوصاله ، وتقفل عليه منافذها ، وتتحجر فتحجره معها ، فهى عمياء صماء لا شرايين فيها ، وليس بها نفس من من أنفاس الحياة ... وليست الواقعية سوى هذا الطراد المجهد الحزين ، فقصد أصحابها الأول هو طلب الراحة ، وحيثما مرت الواقعية لا ينبت على أثرها إلا الحسك ... و « الطبيعية » سحق للحياة ، واستبداد للعمل الإنسانى فى أنواع من الآلية ذات اتجاه واحد .. هو الانحلال البطىء للإنسان — لإنسان ما أو لأسرة أو لمجتمع ، ومن المحتم أن تنتهى إلى العدمية . .

وجاءت « الرمزية » لتكتشف العلاقة بين الموت والجمال ، ولتشير صراحة إلى موضوع أدب نصف القرن ، إنه جمال الماضى المندثر ، وجمال الاحتضار والأزهار الذابلة ، والتآكل

والانقراض ، والحب القاتل والفن القاتل ، فهذا الأدب هو الموت ، الموت المنتشر فى كل مجال ، والشىء الجميل لا يكون جميلا إلا فى استهلاكه ، فهو جميل وهو يفنى ونحن نتمتع به . .

وتمضى هذه الحركة حتى غايتها ، فيكتب « بريتون » يقول عن السريالية : « إن أبسط مظهر للسريالية هو النزول للشارع بمسدس فى اليد وإطلاقه على الناس بالصدفة وبقدر الإمكان » .

لقد كتب الأدباء سبعين عاما مستهلكين العالم ، ثم كتبوا بعد سنة ١٩١٨ مستهلكين الأدب — فأسرفوا فى استخدام الألفاظ والكليشيهات ... وبذلك صار الأدب عدو نفسه ...

ولقد فشل كل هؤلاء الكتاب فى أن يخلقوا أدبا على مستوى أمثل ، فهـذا النوع من الأدب لا يمكن أن يقوم فى مجتمع غير طبقى ، ففى مثـل هذا المجتمع تتم للأدب الفعال طبيعته الكاملة ، ويستطيع الكاتب أن يدرك أنه لا يوجد فرق بين موضوعه وجمهوره ... لأن الكاتب يخوض نفس المغامرة التى يخوضها قراؤه ، وموقفه موقفهم فى مجتمع لا انقسام فيه ، فهو يتحدث عن نفسه حين يتحدث عنهم ، ويتحدث عنهم حين يتحدث عن نفسه ، ولن تمنعه أية عنجهية أرستوقراطية على أن يتخذ موقفاً تجاه مايجرى فى مجتمعه . . ويكون الأدب

فى هذه الحالة إنسانيا حقا وجديراً باسمه . . .

فالكاتب فى المجتمع غير الطبقى « سيروحن » الأدب ، أى يجعله روحيا ، بمعنى أن يستعيد . . هذا العالم المتعدد الألوان بما له من ثقل وكثافة وعمومية ، وبما فيه من أحدوثات متعددة ، وشر قاهر ينهش فيه ، دون أن يستطيع أبداً تدميره دماراً كاملا . والكاتب سيتناول العالم على ماهو عليه ، بعبله ، وعرقه ورائحته ، وكل تفاصيله الخام ، ليقدمه إلى حريات أخر على أساس من حرية الفرد ...

ولو فعل الكاتب هذا لصار ماهو عليه ، أى لصار هو ذاته ، أى لتطابق مع ذاته ، بمعنى أن يصبح « الوعى الذاتى لذاتيه مجتمع فى ثورة دائمة » .

وبهذا المفهوم انتقد سارتر الأدب الانجليزى ، والأمريكى ، وكتب عن الرواية الجديدة فى أمريكا ، وقدم « وليام فوكنر » ، وشرح حرفية « دوس باسوس » ، وهاجم « أندريه موروياك » ، وقرظ « ناتالى ساروت » ، و « أندريه جورز » ، و « رينيه ليبنوفتز » ، وعارض « ماركس » وانضم « لجياكومتى » و « تنتوريتو » .

وكان سارتر فى كل ذلك يقف من هؤلاء الكتاب والفنانين

موقف الناقد الذاتى ، فمن كان يحقق أفكاره هو عن الأدب والفن ، أعلى منه ، ومن كان يدحض هذه الأفكار أو يناقضها خفضه وقصه حتى التفسخ .

ولعل هذا يتضح بصورة قوية فى مقالين أو بحثين له عن « بودلير » وعن « جانيه Ganet » .

فى سنة ١٩٤٦ نشر سارتر بحثه عن الشاعر الفرنسى « فرانسوا بودلير » ضمن مقدمة له عن مجموعة « Ecrits Intimes » . ولم يكن هدف سارتر من البحث هو تقييم ديوان « Les Fleurs du Mal ، زهور الشرّ » ، بل كان بغرض توضيح آرائه فى الأدب والأديب . فالكاتب حر فى اختيار ما يختار لنفسه . واختياره هو ما يصنعه . وسارتر يجد شبها عجيبا بين حياته هو نفسه وبين حياة « فرانسوا بودلير » ، فكلاهما توفى عنه أبوه وهو لم يزل بعد صغيرا ، وكلاهما تزوجت أمه من غير أبيه ، وكلاهما كاتب ، ولكن سارتر اختار لحياته طريقا غير التى اختارها بودلير .

ويرى « فرانسيس جينسون » الناقد والذى كتب كتابه « سارتر بقلم نفسه » أن التشابه بين الاثنين اعتساف فى الحكم ، لأن والد سارتر توفى وسارتر ابن سنتين ، أما بودلير فقد توفى

أبوه وهو فى السادسة ، فهو لم يكن يعى بعد معنى وفاة الأب ، ثم إن أم سارتر تزوجت وابنها فى نحو الثانية عشرة ، أما بودلير فقد تزوجت أمه وهو فى السابعة . وكان زوج كل من أم سارتر وأم بودلير ضابطا ، غير أن علاقة سارتر بزوج أمه كانت علاقة سوية بخلاف علاقة بودلير بزوج أمه . ونشأ سارتر نشأة سوية ، وتقدم فى مراحل النمو تقدما طبيعيا بعكس بودلير الذى ثبت عند مرحلة الطفولة والتصق بأمه .

ومع ذلك فحياة الاثنين تتشابه ، ويعزو سارتر إحساسه هو نفسه بعدم جدوى الحياة لبودلير .

إن بودلير عند ما توفى أبوه زاد ارتباطه بأمه ، وأحس أنه لها وأنها له ، والتصق بها أكثر ، واعتقد أن وضعه كابن هو تدبير إلهى ، وأن بنوته حق إلهى بالتبعية ، ولكنه فوجىء وهو فى السابعة من عمره بأمه تتزوج من جديد ، ووحدتهما تنفصم . لقد كان وجوده ينسحب داخل وجود أمه . كان وجوده هو وجود من وجودها ، ولكنها تزوجت من « أوبيك » وتركته ، فأصبح وجوده مستقلا ، وصار شخصاً منفرداً بذاته .

وصمم على تأكيد هذه الشخصية ، وفرض هذه بالذات ،

وخاصـــة على أمه التى نبذته . كتعويض له على نكرانها ، وإيلاما لها على خيانتها ، ولكن بودلير لم يعرف الفرق بين ذاته والناس الآخرين .

لقد امتلأ بوجوده ، امتلأ حتى الفيضان ، ولكن هذا الوجود لم يكن إلا مزاجا لا طعم له ، ولا طاقة على احتماله ومقاومته . كان شيئا بلا لون ولا ظل ولا ضوء . ولكى يهرب من هذا الوجود والوعى الذى يجرجره خلفه بلا هدف ، أراد أن يجعل من نفسه شيئا مختلفا عن الناس ، أن يحس أنه ليس مثلهم ، وهذا هو سر إحساسه بنفسه الذى اشتهر عنه ، أن يجعل من نفسه الرائى والمرئى فى نفس الوقت ، المعذب والضحية السكين و الجرح .

ومثل روكنتين كان ابودلير الوعى بعدم جدوى وجوده ، ومثل روكنتين أخذ يتذوق وعيه الذاتى ، حتى زهد طعم هذا الوعى الذى لا معنى له ، والذى كان عليه أن يخترع ويبدع قوانينه هو نفسه التى يسير عليها فى وجوده .

لقد حاول أن يهرب من المسئولية باختراع قيم خاصة تناسبه وتسهل له هذا الهروب . كان بودلير رجلا يحس بنفسه حتى الامتلاء ، ويحاول جهد ما يستطيع أن يهرب منها . وبدلا

من أن يوفق بين إحساسه بعدم الجدوى وآماله فى المستقبل ، ويرسم لنفسه مشاريع لإخراج نفسه من هذه الغثاثة التى يحسها فى حاضره ، أراد أن يهرب من الحاضر والمستقبل معا . وأخفى حريته كى يبدع قيمه هو نفسه ، بأن يموه على نفسه بأن قيم أمه والمجتمع البورجوازى هى قيم أبدية لا يمكن تغييرها . لقد أحس بعجزه حيال أمه والمجتمع البورجوازى فأقنع نفسه بأنها قيم غير قابلة للتعديل ، وآثر أن يصنع لنفسه قيمها .

وهـــذا العجز الذى وقف به حيال قيم أمه والمجتمع البورجوازى من اختياره الحر ، فهو الذى اختار أن لا يقرب هذه القيم ، وأن يتحول إلى قيمه هو بالتعديل والتبديل . ومن ثم كان بودلير متمردا لا ثوريا . تمرد على المجتمع وتحوصل تمرده داخل نفسه هو لا يتعداها . أما طريق الثورى فهو تعديل وتغيير قيم المجتمع ، ولم يكن بودلير ثوريا ، ولذا لم يحاول أن يقلب المجتمع بل انقلب على نفسه يصنع منها شيئا مختلفا عن المجتمع . ولذا تقبل حكم الإعدام الذى أصدره المجتمع على ديوان شعره « زهور الشر » ، وصالح الدولة البوليسية ، وارتضى لنفسه كل المهانات التى تحملها فى حياته . ولكنه عند ما كتب الشعر جعل من قصائده بديلا عن الخير الذى أنكره على نفسه . واختار التأنق لحد الإغراب ، والشر

كمذهب يعتنقه ، والخوف من السفر ومن الوحدة ، والبؤس والشقاء على أن يكون إيجابيا مع مجتمعه ويتحمل المسئولية ، وينفعل تجاه أحداثه . وظل الصبي الصغير المنبوذ من أمه لأنه لم تكن لديه الشجاعة الأدبية كي يكبر ، وآثر أن يعيش بصورته عن نفسه التي خلقها في عقول الآخرين ، على أن يعيش شخصية يشكلها هو ويتحمل مسئوليتها . وكانت حياته اليائسة شيئا اختاره هو لنفسه لا شيئا اختارها له القدر الرومانسي .

هذا النموذج الذي كتبه سارتر محللا حياة بودلير تحليلا لم يتوخ فيه الطريقة الفرويدية ، بل المذهب التحليلي الوجودي ، ليثبت به قضية مسئولية الكاتب وحريته الكاملة في الاختيار ، أتبعه سارتر سنة ١٩٥٢ ، بنموذجه الثاني الذي حلل فيه حياة الكاتب الفرنسي « جان جانيه » .

ولقد أهدى سارتر بحثه عن « بودلير » « لجان جانيه » فقد وجد بين حياة الاثنين شبهاً ، ثم خصص بعد ذلك دراسة مستقلة « لجان جانيه » . و « بودلير ، حينما نبذته أمه صار ما صار إليه ، و « جان جانيه » حينما نبذه المجتمع صار أيضا ما صار إليه .

ولقد حقق « بودلير » لنفسه شخصية مختلفة ، ليذكر أمه

بذنبها فى تنشئته ، وحقق « جان جانيه » لنفسه شخصية مختلفة ليذكر مجتمعه كذلك بذنبه فى تنشئته .

لقد ضبط المجتمع « جان جانيه » وهو طفل صغير يسرق ، فاتهمه بالسرقة ، وألصق به صفة السارق ، ومن ثم حمل « جانيه » هذه الصفة ، وصمم على أن تكون له بكامل ما فيها من إمكانيات .

وكان « جان جانيـــه » يتيما تبنـاه أبوان من مقاطعة « مورفان » بفرنسا الوسطى . وأحس « جانيه » وسط سعادته الطفلية بغرابة وضعه ، فهو نتاج غير طبيعى ، وهو الوحيد الذى لا يمكن أن يرث ، وأن تكون له ملكية عن أبويه .

ولكى يعوض نفسه حرمانها أن تكون ابناً لأبوين ، لعب دور القديس والشهيد ، ونظر إلى نفسه فصار الناظر والمنظور والمعذب والضحية .

ولكى يكون كذلك ... سرق ... سرق ليتملك وليقال عنه إنه سارق فيحس بنفسه مضطهداً وشهيداً ... أراد أن تكون له أشياء ، أن يتملك مثلما يتملك المجتمع الذى يعيش فيه .

واكتشفت سرقاته ، وقبضوا عليه وهو فى العاشرة من عمره ، وقالوا عنه إنه لص .

وقبل « جانيه » صفة اللصوصية التى ألصقوها به ، وقيم المجتمع و« الناس الطيبين » . لم يحتقرها كما فعل « بودلير » ، فقد كان صغيرا لا يفهم ذلك ، ولكنه كذلك لم يناقشها ، ولم يحاول أن يرفض عقلية وأخلاقية صغار الملاك الدينية ، بل قرر أن يقبل حكم «الناس الطيبين» ، هؤلاء الملاك المتدينون ، وارتضى أن يكون شريراً بكامل ما فى الشر من إمكانيات ، وحسم موقفه من الناس وعاش ضدهم : اصا .

فياله من صبي صغير ملؤه الشجاعة والتحدى واليأس والثورة!

وهذه الصفات نفسها هى التى صنعته شاعراً وأديبا كبيراً بعد ذلك بعشرين عاما أو تزيد .

إن البورجوازى يعيش ويعايش ، وهو لذلك يخشى النقد والروح التى تمليه ، فالنقد سلبية ، وهو يخشى هذه السلبية ، ولكن النقد ممارسة للحرية ، ولذا يخشى البورجوازى هذه السلبية فى حريته . وعندما يخرج إنسان مثل « جانيه » على مجتمعه ، ويمارس هذه السلبية ، فإن البورجوازى يطلق عليه لقب « مجرم » ، وهو يهيل عليه كل السلبية التى يخشاها هو فى حريته .

ومن السهل على البورجوازى أن يصنع الواجب ، لأن الواجب عبارة عن قوالب يحفظها الناس ، وما أسهل أن

يمارسوها . إنه لا يطلب منهم تفكيراً ، ولا يستلزم أن يقفوا فى قلق ليختاروا ، فلا اختيار هناك ، بل عملية دخول فى قوالب .

ومن السهل أكثر أن تصنع الواجب ما دام هناك عقاب ، فالعقاب دعوة أكثر لفعل الواجب ، والعقاب لا ينزل إلا بالأشرار ، ويخترع الناس الطيبون « الشر والأشرار » ليطوّعوا فعل الواجب ، ويلقوا عليه قداسة ، ويحيلوه إلى جوهر خارج جوهر الإنسان . ولذلك يحس الناس الطيبون بالسعادة وهم يعاقبون الأشرار والمنحرفين والأقلية من أى نوع . وإحساسهم هذا نابع من نبذهم للنقد والرفض للجانب السلبى من حريتهم ، وهم يؤمنون أن الحق كله فى جانبهم وأن الباطل كله فى الجانب الآخر ، وأنهم إذا كانوا يفعلون الحق ، ويقفون فى الجانب الذى يقف فيه ، فهم أخيار ، وما دون ذلك فهو الشر ، وأصحابه أشرار .

والمجرمون هم انطلاقة السلبية ، هم الجزء السلبى من نفوسهم ، وهم يريدون عقاب هذا الجزء ، لأن فى عقابه عقاب لأنفسهم ، فهذا الجزء هو أضحية الكل التى يضحون بها فداء الكل ، فالمجرم هو أضحيتهم ، وليس كل يوم يجدون مجرما ،

وليس كل يوم يجدون مجرما مثل جانيه يتقبل حكمهم عليه ، ويحقق كل إمكانيات اللصوصية فيه .

وهم قد قبضوا على جانيه وهو صغير ، ونفسه لم تزل بعد طوع أمرهم ، فصاغوا منها وحشاً ، وشكلوه بشكل الشر الأمثل الذى عبدوه ، وهذا شيء ليس بمستغرب ، فالتاريخ يقص علينا قصة تلك العادة الغريبة فى بوهيميا ، التى كانت تدفع بعض الناس إلى سرقة الأطفال الصغار ليقطعوا شفاههم ويضغطوا رءوسهم ويدخلوها فى صناديق صغيرة تمنعها عن النمو ، ويكبر الأطفال فى العمر ، ولكنهم يظلون على حالهم الذى غصبوا عليه ، ومن ثم يستحيلون إلى وحوش صغيرة تسلى من يشتريها وتدخل على قلبه السرور .

وهذه العادة نفسها هى ما مارسه المجتمع البورجوازى مع « جان جانيه » عند ما كان طفلا . وهذه الممارسة لم تكن ممارسة حقيقية . ولكنها كانت ممارسة رمزية ، ومع كل فالنتيجة واحدة فى الحالتين : أنهم صنعوا من الطفـــل الصغير لصاً لأسباب اجتماعية نفسية .

ومن هنا نرى أن سارتر قد اهتم فى بحثه عن « جان جانيه » بمشكلة حيوية ، هى مشكلة الوجود والسلبية ، وعدم تحقق

السلبية المطلقة فى الشر الكامل . واستخدام الأدب كوسيلة للإنتقام من المجتمع .

لقد أراد « جان جانيه » أن يحقق الشر الكامل ، وأن لا يكون بينه وبين الشر هوة ، ولكن شتان بين ما أريد وبين ما أحققه لنفسى ، فالإنسان لا يستطيع أبداً أن يكون ما يريده وحتى لو تحقق له ما يريده فهو لا يكف أبداً عن المزيد من الرغبة والكينونة ، فما يحققه إن هو إلا نقط انطلاق أو محطات يثب منها لرغبات وإرادات وتحققات جديدة . فالإنسان تجاوز باستمرار ، وعلى ذلك فهو ليس حدوداً مسبقة يحققها وينتهى الأمر ، ولكنه مشروع غير محدد ، وجد أولا ثم بعد ذلك يتعرف إلى نفسه ويكتشف ماهيته ، وهو لن يستطيع أبدا أن يحقق ما يريد لأن ما يريده لا يتضح متحددا أبدا ، لأنه تجاوز باستمرار ، وإرادة « جان جانيه » أن يكون الشر كاملا لن تتحقق كاملة ، ومع ذلك فهى قد شرعت فى التحقق ، وشروع التحقق نجاح فى حد ذاته ، وإذن فالفشل نجاح . لأنه نجح فى الشروع . لقد حاول ومحاولته هذه هى النجاح ، ولكن النجاح الكامل لم يتحقق كذلك ، فنجاحه فشل . وإذن فهو قد فشل ، وفشله يضجره ، وهو قد سئمه ولذلك فهو يتوقف عنه . وهو يجرب أن يكون عكس الشر ، أن يكون قديساً ، فإن كان

قد فشل فى أن يكون شيطانا فليجرب أن يكون قديساً ، ولكن كيف السبيل إلى أن يكون قديساً ؟ لا سبيل هناك إلا بتقبل أحكام الناس ، بأن يتقبل ما يحكمون به عليه ، لا يتذمر منه ، ويرتضيه كما يرتضى وجوده هو نفسه . وهذا التقبل هو القداسة ، فهو قديس ، ومع ذلك فهو قديس ليس ككل القديسين . إن القديس المسيحى يرفض أن يتقبل حكم الناس . إنه لا يرتضى إلا حكم الله وحده . إن القديس المسيحى يتأبى على حكم الناس عليه ، لا يبالى بما يقولونه عنه ، وما لا يتفق مع قيمهم . والمثل القوى فى ذلك هو مثل سيدنا الخضر فى قصة القرآن الكريم ، فسيدنا الخضر يفعل ما يرضاه ويتقبله الله ، ولكنه لا يبالى بما يتقوله عليه البشر ، وبما يحكم به عليه موسى ، وبما يتفق أو لا يتفق مع قيم أهل الأرض .

أما جان جانيه القديس فهو يتقبل حكم الناس ويرتضيه وفى قبوله لحكم الناس قبول للناس أنفسهم ، ولكنه يتقبل الناس والناس لا تتقبله ، ومن ثم فهو يائس . لقد أيأسه الشر وأيأسته القداسة ، ولم يكن الخير بأقل بؤساً من الشر ، ومن ثم فهو يرفض الخير مثلما رفض الشر ، وهو يتحول من أجل ذلك عن عالم الشر وعالم الخير معاً ، ويضرب فى طريق جديد لا هو بالشر ولا هو بالخير ، ولكنه طريق جديد كل الجدة .

هذا الطريق الجديد هو طريق الجماليات . بأن يصير أديبا . لقد وجد أخيراً الطريق الذى سيحتمى فيه ، وهو سوف يجد خلاصه فى الفن لأن الفن فى جوهره لا أخلاقى .

إن الفن عنده هو الجمال والجمال شر قد تحقق وخرج من الإمكانية إلى العينية ، ولذلك يقلق الجمال ضمائر النـــاس « الناس الطيبين » ويلعنونه ، لأن الجمال يوقفهم موقف الذى يختار عندما يكونون أمامه ، وهو يستلبهم من عالمهم الصافى الخلو من الصراع ، إلى عالم فيه صراع وقلق وخوف من المسئولية ، فهو ضد الأخلاق وضد الخير .

و « جانيه » يعبر عن نفسه بالجماليات ، بالفن ، وهو يخلق تحفا فنيـة لأنه يعيش فى هذه القصائد والمسرحيات والقصص ـــ يعيش فيها الخلق والدمار معا ، يعيش عدم إمكانية الدمار وعدم إمكانية الخلق ، لأنه يريد أن يطلق صرخة الرفض المقدس ، وصرخة الإشهاد المطلق على العجز الإنسانى فى نفس الوقت . وإذن فجانيه يعيش ليس الأدب والفن الملتزمين ولـكنه يعيش الأدب والفن الزائفين . لقد يئس من العالم الحقيقى فصنع عالماً يحيا فيه ، وخلق فناً مزيفا ، ففن جانيه فن مزيف .

وجانيه فى تعبيره الفنى يحرر نفسه ، ويتهم المجتمع الطيب

بما يخلق من صور فنية ، وهو يعود إلى المجتمع كالشبح ليسكن صدور « الناس الطيبين » فيه ويقلق ضمائرهم .

وسارتر فى ذلك يحقق نظريته فى العمل الأدبى الكبير ، فالعمل الأدبى كالحية يلقيها الكاتب فى صدر قرائه ، وبمجرد أن يعطيها القارىء الدفء ، بقراءة العمل الأدبى والتفكير فيه ، فإن الحية تنشر نفسها وتنفث سمها ... و « جانيه » بدفعه للناس الطيبين أن يقرأوه ويفكروا فى كتبه ، إنما ينفث سموم شكوكه فى عقولهم ، وهكذا يحقق « جانيه » فى الأدب انتقامه وثأره من هؤلاء الناس الطيبين .

وإذن فالأدب عند سارتر تعبير عن الجوهر السياسى ، وهو كذلك تعبير عن الجوهر الفلسفى . وسارتر فى تحليلاته الوجودية يختلط التفسير السياسى عنده بالتفسير الاجتماعى ، ويأخذ الاثنـــان بعداً ثالثا ، هو الأعماق الوجودية التى تنعكس عليها هذه التفسيرات . وهو فى رواياته ومسرحياته ومقالاته يتجاوب إما مع المنبوذين من المجتمع البورجوازى ، أو مع الثائرين على هذا المجتمع والمتآمرين عليه .

وفى روايته « الغثيان » يجد « روكنتين » فى أغنية « بعض هذه الأيام » خلاصه ، ولكننا نتأمل حقيقة وضع مؤلف الأغنية ومغنيها ، فنجد الاثنين من الأقلية ، فالأول يهودى والثانية زنجية .

وفى مسرحية « المومس الفاضلة » نجد أن الشخصين الأمينين فى كل المسرحية هما الزنجى والمومس . أما البيض فكلهم كذابون سفلة بلا أخلاق .

وفى « دروب الحرية » يرسم سارتر شخصية « برونيت » مدققاً وكأنه يرسم صورة حبيبة له ، و « برونيت » اشتراكى . وسارتر يتجاوب معه إلى أقصى حد ولو انه يلقى على موقفه بعض الشك .

وهو فى الجزء الثانى من « دروب الحرية » والمسمى « وقف التنفيذ » ، يؤثر الطبقة العاملة بكل السمات المستحبة ، حتى القدرة الجنسية . فأعضاء هذه الطبقة وحدها هم السويون جنسيا ، كما فى حالة « موريس » و « زيزيت » .

ويقف سارتر فى مقالاته الأدبية والنقدية مع كل من يرفع صوته من أجل الطبقات العاملة ، فكتاب القرن التاسع عشر مخطئون لأنهم لم يتحالفوا مع العمال . و « فلوبير » والأخوان « جونكور » كان من واجبهم أن يحتجوا على مذابح « الكومون » . و « بودلير » شاعر ردىء لأنه لم يجد نفسه بين البروليتاريا .

والعمل الأدبى الوحيد الجدير بأن يكون « أدبا كبيراً » هو

العمل الأدبى الذى ينفذ إلى ضمير الطبقة المتوسطة ، يقلقه ويعربد فيه ويدمره كما تفعل مسرحيات وأشعار « جان جانيه » ، أو هو العمل الأدبى الذى يعبر عن بعث طبقة كانت مضطهدة ومغلوبة على أمرها فى الماضى .

وعندما تقدم إليه عدد من الشعراء الزنوج الإفريقيين بكتابة مقدمة لمجموعتهم ، رحب سارتر بالفكرة ، ووجد فى أشعارهم نغمة وروحا جديدين ، فيهما تحد واستقلال . وتحمس لهذا الاتجاه الجديد الذى يتجه أدب المستعمرات .

وينفث سارتر أفكاره السياسية حتى فى أفلامه ، وهو يخلطها بالخطوط الأدبية للشخصيات ، فبطله فى فيلمه Les Jeuz Sont Faits مشغول بالنظام الاجتماعى ، مهموم بأفكاره الاشتراكية ، حتى ليضحى بحبه من سيدة غنية من الطبقة الوسطى فى سبيل مبادئه .

وفى فيلمه الثانى « ساحرات سالم » الذى كتبه عن مسرحية « البوتقة » « لآرثر ميللر » أنهى الفيلم على خلاف نهاية المسرحية ، فالمسرحية تنتهى بأن تحكم البورجوازية والكهانة الدينية على « جون بروكتور » بالإعدام ، ونسمع أنه أعدم والطبول تدق دقاتها الأخيرة ، ولكن سارتر يدفع بجماهير

العمال إلى منصة المشنقة فى محاولة منهم لتخليص « جون بروكتور » من بين أيدى البورجوازية .

فسارتر إذن يؤمن بأن البورجوازية طبقة فى طريقها للانهيار ، إن آجلا أو عاجلا ، وأنها سر نكبة الإنسانية ، وتأخر الحضارة ، وتخلف العالم ، ومآسى الاستعمار والفقر والجهل والمرض ، وأنه لا نجاة للبشرية إلا بطبقة العمال ، فالعمال هم أمل الإنسانية والمستقبل . وهذه الفكرة لا يخلو منها أى مقال أو عمل أدبى لسارتر ، فهى تنتشر فى كل كتبه ، وتكاد تكون « ليتموتيف » فيها .

وحتى كتابه الكبير « الوجود والعدم » لا يخلو من الفكر السياسى ، وهو عند ما يناقش « الوجود مع Mitsein » يقول إن الطبقة المغلوبة على أمرها تكتشف اتحادها عند ما « ينظر » جلادوها إليها ، وتكتشف أنه لاسبيل إلى إلقاء نير الظلم عن كاهلها والتخلص من ظالميها إلا « بالنظر إليهم » بدورها .

فتبادل النظرات مبارزة ، ونظرة الطبقة كلها لظالميها لا يقوى عليها الظالمون . وحتى عند ما اشتغل سارتر بالنقد السينمائى ، وكتب ينقد فيلم « باريس » قال :

إن البورجوازية لا تؤمن بالطبقات وحرب الطبقات ، وهى تعتقد أن قائلى هذا الكلام مخرفون ومثيرو فتن ، ولكن المغلوبين على أمرهم طبقة ، وإحساسهم الطبـــق لا يبلغ مداه إلا عند ما يبين الظلم الاجتماعى بصورة صارخة ، وعندئذ يجمعهم الظلم ويوحد أمرهم . وعلى العكس من ذلك الطبقة البورجوازية ، فهى متفرقة وقت أن تكون السلطة لها ، وهى متحدة عند ما تواجهها الطبقة العمالية .

فجوهر العلاقات الإنسانية هو الصراع وليس التعاون ، ولكن التعاون ممكن فى حالة واحدة فقط ، فى مجتمع خلو من الطبقات وبين العمال وحدهم .

* * *